مأساة الطفولة عبر التاريخ من خلال كتاب "الطفولة في التاريخ العالمي"

الدكتور: موسى برلال
المغرب

مقدمة

تعرض البحث في تاريخ الطفولة إلى الإهمال من طرف المفكرين على مر العصور، وهو أمر لا ينفصل عن التهميش الذي طال الأطفال في مختلف المجتمعات البشرية. إن إهمال الطفولة على صعيد البحث النظري يعكس المأساة التي تعرض لها الأطفال على صعيد الواقع. لذلك، فالبحث في تاريخ الطفولة مدخل أساسي للكشف عن حقيقة المجتمعات البشرية ونظامها الثقافي في كل مرحلة تاريخية.

حينما يقوم المجتمع على أساس إقصاء واستغلال الأطفال، فذلك يعني أنه مجتمع سلطوي يعلي من مكانة الكبار ولا يقبل الدخول في حوار مع الأطفال الصغار، أما إذا كان المجتمع ينظر إلى الطفل بوصفه مواطنا له من الحقوق والكرامة ما لباقي أفراد المجتمع؛ فمعنى ذلك أننا أمام مجتمع قائم على التفكير العلمي والقوانين والمؤسسات الديمقراطية.

نظرا لكون حقوق الطفل لم تظهر إلا خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بعدما كانت الطفولة مغيبة من الخطابات العلمية والحقوقية لزمن طويل؛ فذلك ما يمنح البحث في تاريخ الطفولة جماليته وأهميته الكبرى، بالرغم من كل تعقيداته، فهو يوفر "خارطة طريق تبيّن من أين تأتي هذه التجربة الإنسانية، وهي تتدحرج في الحاضر في سبيلها من الماضي إلى المستقبل"[1].

من هذا المنطلق، سنبرز من خلال مؤلف الباحث في التاريخ الاجتماعي بيترن ن. ستيرنز طبيعة هذه التجربة الإنسانية (أي الطفولة)، بالوقوف عند تمثلات مختلف الحضارات القديمة للطفل وصولا إلى واقع الطفولة في المجتمعات الحديثة. وعليه، سنجيب عن الأسئلة الآتية:

- ما تمثلات الحضارات القديمة للطفولة؟

- كيف عاش الناس طفولتهم في مختلف المجتمعات البشرية على مر التاريخ؟
- وكيف برز اهتمام العلم بهذه الفئة في الفترة الحديثة؟
- وهل استطاعت المجتمعات الحديثة إنصاف الأطفال والتوقيع على نهاية مأساتهم؟

1- الطفولة في النصوص الكونفوشية المقدسة (الحضارة الصينية)

يبدو أن الحضارة الصينية لم تقدم إلا القليل مما يظهر الإعجاب بصفات الأطفال كأفراد، حيث عقدت النصوص الكونفوشية من تعريف الطفولة، كما "أكدت الثقافة والقانون كلاهما حقوق الوالدين وواجب الطاعة تأكيدا عظيما. لقد كان مجرد الكلام على نحو فيه نقد لأحد الوالدين مدعاةً للعقاب. من جهة المبدأ، الابن الذي يضرب أحد والديه يجوز قتله بقطع الرأس ولو لم يحدث لهما أذى. بإزاء ذلك، للآباء حق ضرب الأطفال متى شاؤوا، ومن غير أن ينالهم عقاب حتى لو قتلوهم"[2].

واضح أن المعايير الثقافية في الحضارة الصينية تقصي الطفل كليا من الحق في التعبير أو معارضة أوامر الآباء كما هو واضح في أحد الأمثال: «ليس في العالم والدان على خطأ». لذلك، فمخالفة الطفل للآباء جعلت قتله مشروعا. وكانت المحاكم القانونية الصينية تؤيد ذلك على نحو روتيني: «متى ينكّل الأب أو الأم بابن لهما تقبل السلطات بذلك من غير مساءلة ولا محاكمة»[3].

لقد جاء في إحدى الكراسات الكونفوشية المتأخرة توصيفا دقيقا للمراسم التي ينبغي التمسك بها في الأسرة الممتدة الكبيرة، إذ يأخذ كل فرد منها موضعا مرسوما له، كما يظهر في أحد الطقوس الذي يصوره المشهد الآتي: "يأخذ أكبر الأبناء ناحية يسار الباب، أما كبرى البنات فيمينه؛ ويكون وجه كل منهما شطر الجنوب، وينحني لهما إخوتهما وأخواتهما جميعا واحدا واحدا... ثم يتقدم الأزواج جميعا فيصعدون الدرج الغربي، أما الزوجات فيصعدن الدرج الشرقي، وهناك ينحني لهم الأولاد جميعا... بعد الفراغ من هذه التحية... يتقدم الأولاد إلى الجانبين الشرقي والغربي من الباب وينحني لهم إخوتهم وأخواتهم الذين يصغرونهم"[4].

أما بخصوص المواليد المشوهين، فقد أجازت سلالة "تشين" قتلهم، نظرا لكون تنشئتهم ذات تكلفة باهظة. أما باقي الأطفال فكان قتلهم محظورا من حيث المبدأ، وفي حالة وقوع القتل تكون العقوبات خفيفة في أغلب الأحيان،

بل إن الولائد الإناث غالبا ما كن يُدفعن إلى الموت في حالة العوز. لقد كانت بعض الأسر الفقيرة تبيع أطفالها رقيقا كوسيلة لتوفير مدخول اقتصادي والتخفيف من متطلبات الأسرة[5].

كانت الثقافة الصينية أبوية على نحو صارم، فلم تتوفر إلا على إشارات مبهمة للتمييز بين التذكير والتأنيث، كما كانت البنات أدنى مكانة من الصبيان[6]. وبخصوص الزواج، كان من المتعارف عليه أن يدبر الوالدين لأطفالهم أمره، وكثيرا ما كانوا يبدأون التفاوض في ذلك بُعيد مولدهم، ويوقعون الوثائق الرسمية في الخامسة أو نحوها[7].

2- الطفولة في حضارة الهند، والإنكا، والأزتيك...

تتشابه مختلف خصائص الطفولة الهندية مع خصائص الطفولة الصينية سالفة الذكر. ورغم أن قتل المواليد لم يُؤكد في الحضارة الهندية، "فقد كان يمارس، لاسيما قتل الرضيعات اللاتي لا يُرغب فيهن. كان العمل هو المقدّر لأكثر الأطفال ومن صغر سنهم، أما المعاملة بكمال الدلال فلم تكن متاحة حتى في الطفولة الباكرة إلا للأسر الثرية، في هذا المجتمع الذي من علاماته الراسخة التفرقة الاجتماعية. (...) كان الأمر المتعارف عليه هو تزويج البنات باكرا"[8].

لقد كان الهنود يسعون إلى السيطرة على الطفل إما بالتعليم الصارم أو بالعمل أو بالزواج المبكر. على سبيل المثال، اقترحت قوانين مانو، وهي نصوص هندوسية مقدسة أن يكون الزواج في الثامنة، مع تركها قدرا من حرية الاختيار. أما باقي مرجعياتهم الثقافية فقد ألحت على التزويج منذ الرابعة، واشتراط ألا يؤخر الزواج إلى ما بعد العاشرة. هذا مع الإشارة إلى أن البنات لا يلتحقن بأزواجهن بالضرورة بمجرد الاتفاق عليه، بل كن يلتحقن بهم عندما يكبرن. وفي جميع الأحوال، كانت الثقافة الهندية تولي أهمية كبرى للسيطرة الجنسية على الأطفال[9].

جدير بالذكر أن المعايير المتعلقة بتزويج البنات منذ سن مبكر كانت سائدة في الثقافة العربية أيضا، مع وضع شرط "أن تطيق البنت الجماع". لهذا، يجب أن نعترف بكون مختلف الثقافات احتقرت الأطفال واستغلتهم.

من جهتها، اتسمت حضارة الأزتيك التي قامت بعد المايا بقليل، بطابع أكثر خشونة، حيث كانت العقوبات البدنية شائعة، من قبيل غرْز شوك الصبار في جلد الصبيان، في إطار تدريبهم العسكري الذي اعتبر واجبا[10]. أما في حضارة الإنكا فكانت المعاملة القاسية للأطفال تبدأ باكرا؛ حيث يُغطس الْمَوْلُودُونَ حديث الولادة في الماء البارد ثم يُلفون في لحاف، وبعد إتمام السنة الأولى يبدأ تأديبهم بشكل أكثر انتظاما. وهكذا "نال الصبيان مرتبة الرجولة بمراسيم مفصلة عند بلوغهم الرابعة عشر، وحينئذ كانوا يمنحون سلاحا"[11].

إجمالا، أكدت هذه الحضارات الباكرة في قوانينها ومعاييرها الثقافية على أهمية الطاعة ومعاملة الأطفال بقسوة. وقد ورد هذا الأمر نفسه في بلاد ما بين النهرين، حيث حثت قوانينها على حق الأب في عقاب الابن العاق. أما الشريعة اليهودية؛ فقد اشتمل العقاب فيها على الإعدام، حيث جاء في الكتاب المقدس في سفر التثنية: «إذا كان لرجل ابن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه... يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته... ويقولان لشيوخ مدينته: ابننا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف وسكير. فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت»[12].

3- الطفولة في الحضارتين اليونانية والرومانية

تميزت الحضارة اليونانية والرومانية بنوع من الإعجاب العلني بالشباب أكثر مما كان في الحضارات السابقة التي أقرت نظاما تراتبيا صارما دون إمكانية إخضاعه لأي نقاش علني. لقد كانت المثلية الجنسية متاحة في الحضارة اليونانية وكان اليونانيون أكثر إعجابا بالجسد الفتي. بيد أن فترة الشباب وما دونها كان ينظر إليها على أنها فترة متعبة وحالة غير محبوبة، بل خطيرة، يجدر بها أن تفضي إلى النضج والرشد حالما يمكن ذلك. ومما لا ريب فيه، "أن الفيلسوف الأثيني سقراط قد سعى إلى الرقي بصفات الشباب وتحويلها إلى روح أكثر نقدية، بيد أنه عُوقب على مسعاه تحديدا بسبب قلق مجتمعه من أن ضلال الشباب قد يفسد التناغم السياسي"[13].

لقد كانت حضارة اليونان والرومان قائمة على تمجيد صفات الرشد في الأطفال، والثناء على "الطفل المسن"، أي الطفل الذي يبدي نضجا جسديا ومعرفيا. وقد خَص الكاتب بليني إحدى الفتيات بالإشارة إلى ما لها من حسن التميز الذي يكون للكبيرات، واتصافها بالحشمة التي تخص المتزوجات[14].

كان قتل الإناث حديثي الولادة شائعا باليونان، حيث تذكُر بعض التقديرات أن 20 في المائة من البنات اللائي وُلدن في أثينا كن يقتلن[15]. ذلك ما يعبر عن بشاعة معاملة الأطفال، خصوصا منهم الإناث، في تلك الحضارة التي ادعت أنها تحكّم العقل، والذي لم يتمكن من إعادة النظر في المعايير الثقافة والعلاقات الاجتماعية السائدة.

أما روما فكانت أقل انغماسا في ممارسات القتل هذه، "بيد أنها كانت تتخلص من بعض الصبيان؛ ومع أن الإمبراطورية قد سنت (على غرار ما فعلت نظيرتها الصينية) القوانين التي تحرم هذه الممارسة، فإن وسائل تطبيقها كانت قليلة. (...) وعلى نحو ما كان في الصين، لم يول موت الأطفال الصغار كثيرا من الاهتمام"[16]. وبخصوص قتل الأطفال كتب إبيكتيتوس يعلق على ذلك قائلا: "حين تقبّل طفلك تقول لنفسك: لعله يموت في الصباح".

وقد لاحظ الكاتب الروماني بلوتارك أنه حين يموت المواليد "لا يجتمع الناس حول جنائزهم ولا يقومون عند قبورهم"[17].

4- الطفولة في إفريقيا

تميزت معاملة الآباء للأطفال في بلدان البحر الأبيض المتوسط بنوع من القسوة، حيث أن الوالدين، سواء أكانوا من العامة أم من أهل النخبة، كانوا حينما يرسلون أبناءهم إلى المدرسة، يسلمون بأن التأديب القاسي أحد العناصر الضرورية لاستقامة الصبيان وتمكنهم من التعلم[18].

أما تحديد سن الرشد في بلدان البحر الأبيض المتوسط فكان شبيها بالحضارة الصينية، حيث كان الأطفال يعاملون من قبل الآباء بوصفهم راشدين بشكل مبكر، مع الإبقاء على تبعيتهم للأهل[19].

ومع انتشار الزراعة واستعمال الحديد في معظم أرجاء القارة الإفريقية "اكتسبت مطالب العمل تأكيدا جديدا، وجاء مع ذلك قدر متزايد من المكافآت التشجيعية مقابل الطاعة. كان بين المكانة والعمر ارتباط وثيق؛ مما جعل الأطفال في مكانة دنيا، وطُبقت التقسيمات بين الجنسين تطبيقا شديدا أيضا"[20].

ومما كتبه ابن بطوطة، الرحالة المغربي، "أن واحدا من بضعة «أفعال حسنة» لأهل إمبراطورية مالي هو إصرار الوالدين على حفظ الصبيان القرآن، أو أجزاء كبيرة منه، على أضعف تقدير، «وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تُفك عنهم حتى يحفظوه». بيد أن التزام الأطفال بما لابن بطوطة من فكرة عن الإسلام لم يكن تماما، ولذلك نجده أيضا يطعن على الوالدين بسبب «مساوئ أفعالهم»، تركهم لبناتهم يجرين عرايا، وكذلك السماح لهن بالدخول على الملك بلا تكلف"[21].

5- الطفولة في أوروبا الحديثة

يذكر الباحثون أن الأطفال كانوا مازالوا يعاملون بقسوة إبان العصر الحديث، وقد "ظهرت أمثلة مروعة عن سوء المعاملة للأطفال في الغرب التقليدي في الحقبة ما بعد الكلاسيكية وحتى في القرنين السابع عشر والثامن عشر، على نحو ما فعل أستاذ مدرسة ألماني؛ إذ ضرب تلميذا حتى أدماه لأنه لم يدرس. كان التأديب البدني مقبولا على نحو واسع بالطبع، بل موصى به في الأوساط الأسرية والمدارس معا"[22].

غير أن الطفولة حظيت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر باهتمام خاص، يفوق الاهتمام بها خلال العصور السابقة، حيث ازداد الاعتراف بحاجات الطفل على مستوى التغذية والإرشاد، كما بدأ الاهتمام بالتعليم المدرسي؛ وهو ما أدى إلى انخفاض معدلات الولادات بغية توفير مزيد من العناية للأطفال. ومن ضمن علامات التحول خلال هذه المرحلة بروز التمييز بين مراحل الطفولة المختلفة وبين الرشد تمييزا ذا صبغة رسمية أكثر من ذي قبل[23].

على العكس من أوروبا الحديثة؛ كانت نسبة الوفيات عند الأطفال عالية في أوروبا ما قبل الحديثة، كما كانت الأسرة تستعمل التأديب القاسي بشكل كبير. في هذا السياق، أكد إريك إريكسون، المؤرخ والمحلل النفسي، تعرض مارتن لوثر- الذي أصبح المحرض على الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر- للضرب المتواتر على يد أبيه العامل في مناجم الفحم. كما كشف إريكسون أيضا عن كون المستعمرين الأوروبيين كانوا يعاقبون أطفال هنود أمريكا الشمالية عقابا بدنيا مبالغا فيه[24].

6- الظهور الفعلي للطفل بالمجتمعات الغربية

مع تطور علم النفس تم إدراك أن مرحلة الطفولة مختلفة عن مرحلة الرشد وعالم الكبار، كما تم بالغرب خلال القرن التاسع عشر وضع مفهوم جديد لتمييز مرحلة عمرية أساسية من حياة الطفل هي مرحلة المراهقة (Adolescence). وقد دخل هذا اللفظ في الاستعمال ابتداء من ثلاثينيات القرن التاسع عشر، للإشارة إلى أن المراهقة علامة على مرحلة النضج الجنسي والحرمان[25].

هكذا، وبالنظر إلى كون المراهقة مرحلة طبيعية من حياة الطفل، أصبح الطفل ينال قدرا كبيرا من الاحترام. لقد "كان مفهوم المراهقة وقودا لتغيير اجتماعي أوسع نطاقا، وإن كان سلاحا ذا حدين. إن المراهقين المنحرفين، لاختلافهم الكبير عن الراشدين، وأملا في صون البراءة الطفولية أو استعادتها، قد احتاجوا إلى معاملة مميزة من الشرطة والمحاكم؛ فلا ينبغي معاملتهم معاملة المذنبين فيُقذف بهم مع المجرمين الراشدين"[26].

أعلنت السويدية إلين كي في عام 1907 أن القرن العشرين هو «قرن الطفل». وقد حظي هذا الشعار برواج واسع في الولايات المتحدة، "فمع ظهور المكاسب في الصحة والتعليم المدرسي ظهورا واضحا، ومع إتاحة الخبرة الجديدة، ومع البدء في تقدم النقاشات حول تأديب أكثر لطفا، ومع وفرة استهلاكية أكثر من قبل، فقد كانت نبوءة كي أمرا معقولا، ولقيت ترحيبا واسعا. لقد نجح الأمر من بعض الوجوه: كان الأطفال في المجتمعات الصناعية

أحسن تعليما، وأبعد عن احتمال أن يعملوا تحت ظروف قاسية، وأبعد بكثير عن احتمال أن يموتوا، بل كان صفعهم أقل احتمالا مما كان في القرن التاسع عشر"[27].

ابتداء من العشرينيات من القرن الماضي ألح خبراء تنشئة الأطفال، على نحو يكاد يكون متجانسا، على معارضة الصفع، حيث "حرمت بريطانيا وولايات أمريكية عدة (وليس كلها) العقاب الجسدي في المدارس بحلول الثمانينيات. بل إن البلدان الإسكندنافية قد حظرت الصفع في المنزل. على نحو أكثر انتشارا، في الولايات المتحدة وسواها، أصبحت تعريفات سوء معاملة الأطفال أكثر صرامة، وصارت الأفعال التي كان يُمر عليها سابقا مرور الكرام، مثل الكدمات الشديدة، تُعدّ جريمة"[28].

وبخصوص العقيدة الماركسية فقد تقاطعت بدورها مع حركات حقوق الإنسان الدولية التي تعنى بالأطفال، وإن كان ذلك جزئيا فقط[29]، نظرا لتركيزها على التلقين العقائدي الماركسي. في هذا الصدد "حُدِّثَ الأطفال عن الأبطال الشيوعيين من الزعيم ماو ومن بعده، وعن الحاجة إلى تكريس حياتهم للنضال من أجل الشيوعية، علما بأن أحد الذين أُجريت معهم مقابلة قد لاحظ، وهو يتذكر أيامه في المدرسة: «أقول صادقا إننا لم نكن نعلم آنذاك ما هي الشيوعية»"[30].

بعد خروج الآباء إلى العمل؛ أنشأ الاتحاد السوفييتي مدارس الحضانة ورياض الأطفال، وذلك من أجل إيجاد حل لرعاية أطفال الوالدين اللذين أصبح كلاهما يعمل على خارج المنزل. وقد اعتبرت هذه المدراس فرصة لتلقين العقيدة الماركسية منذ الطفولة[31].

7- واقع الطفولة من القرن العشرين إلى اليوم بين الأمل واستمرار المأساة

رغم أن هناك ما يبعث على الأمل، بفعل ظهور خطابات تربوية وحقوقية مهتمة بالطفولة خلال القرن العشرين، إلا أن الأطفال مازالوا يعانون إلى يومنا هذا. فعلى سبيل المثال، دفعت حروب القرن العشرين الدرامية الكثيرة إلى تهجير السكان، "وفيهم من الأطفال مئات الآلاف، وما استمر من ذلك إلى القرن الحادي والعشرين وفيه، هو جزء لا يتجزأ من تاريخ الطفولة القريب"[32].

لقد تبين أن ما سمي بـ «قرن الطفل» هو لكثير من الأطفال زمان سيء[33]، حيث تقدّر الإحصائيات أن 150 مليون طفل "قتلوا في الحروب والحروب الأهلية منذ السبعينيات، في مختلف أرجاء العالم، وأُقعد 150 مليونا آخرون أو أصيبوا بعاهة دائمة. (...) أضف إلى ذلك أن التقديرات تورد أن 80 في المائة من كل الناس الذين قتلوا في

صراعات في أواخر القرن العشرين وأوائل الحادي والعشرين كانوا من النساء والأطفال، سقطوا في صدامات نادرا ما اشتملت على اشتباكات شاملة بين جيوش تقليدية من ذكور راشدين"[34].

ورغم أن الواقعين تحت الهجوم والقصف، ومنهم العراقيون الذين كانوا يحتجون على الغزو الأمريكي، كانوا يبرزون صور الأطفال الموتى أو المصابين، لعل ذلك يؤثر على الرأي العالمي فيؤدي إلى إيقاف الحرب، إلا أن هذه المشاعر المرعبة لم تغير شيئا في الرأي العام[35]. ولو تركنا العنف الصريح جانبا لوجدنا أن مخيمات اللاجئين تفتقد إلى إمدادات الغذاء والدواء على نحو فظيع، بينما يعاني كثير من أطفال المخيمات من مشاكل صحية[36].

علاوة على ذلك، فقد استعمل الأطفال في الحروب وتم تجنيدهم. لقد كان جزء كبير من الجنود في الثورة الأمريكية من الصبيان الذين يبلغ عمرهم حوالي الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، بل اشترك في الحرب أيضا بعض الأطفال الصغار ممن هم في الثامنة من عمرهم[37].

كل ذلك يعكس تناقضا صارخا بين واقع الأطفال–الجنود وبين المعايير العالمية الجديدة (وإن لم تكن فعالة)، وهو ما يحيل على تدهور حقيقي في حياة كثير من الأطفال. إن "أكثر الجنود الأطفال هم في أوائل المراهقة، لكن بعضهم دون العاشرة. أكثرهم من الصبيان، بيد أن الفتيات كثيرا ما يُجندن لأدوار مساندة، ومنها الجنس كرها أو طوعا، ولشيء من القتال. مثال ذلك أن الفتيات، في جبهة تحرير مورو الإسلامية في الفلبين، يستعملن لإعداد الطعام وتقديم الرعاية الطبية، بيد أن كل زعيم قد اختص أيضا بفتاة للذة الجنسية"[38].

بالإضافة إلى استغلال الأطفال في الحروب، نجد أن العديد من الأطفال يعملون في كثير من مدن إفريقيا وأمريكا الوسطى بوصفهم خدما (حمل الحقائب، والقيام بأعمال أخرى مختلفة من أعمال الشوارع)[39].

لقد أدى فقدان الأطفال والنساء لحماية أسرهم في المائة سنة الماضية إلى الوقوع ضحية للعديد من أشكال الاستغلال، إذ "وجد عدد كبير منهم، ولا سيما النساء، أنفسهم متورطين في الجنس العرضي أو الدعارة الصريحة. هذا الأمر يجعلهم، وأطفالهم بالطبع، عرضة لمخاطر المرض على نحو أعظم. غالبا ما يجد الأطفال اليتيمون فرصا اقتصادية أقل، وهذا هو، مرة أخرى، ما قد يدفعهم نحو عمل خطير أو مخزٍ"[40].

8- جهود المنظمات الدولية من أجل حماية الطفولة

بدأت جهود المنظمات الدولية المتعلقة بمساعدة الأطفال وتشكيل هيئات خاصة بالطفولة منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهو مؤشر على تنامي الوعي السياسي وتأثير خطابات حقوق الإنسان العالمية. في هذا الإطار، نجد "أن المنظمات الخاصة، مثل صندوق «أنقذوا الأطفال»، والهيئات السياسية المتفرعة عن الأمم المتحدة، قد التمست جميعها العمل الخيري ووزعت الأموال والمنتجات. كانت حاجات الأطفال الفقراء تفوق التبرعات على نحو منتظم، بيد أن المعونة كانت ذات شأن، وكذلك ما تضمنته من مبادئ جديدة"[41].

من جهتها، سعت منظمة الصحة العالمية إلى الإعلاء من شأن صحة الأطفال والحرص على بقائهم على قيد الحياة. في هذا الإطار، طبقت عدة برامج تحت رعايتها؛ من قبيل حملات التلقيح التي تمكنت من التغلب الفعال على بعض الأمراض التقليدية القاتلة (مثل شلل الأطفال)، كما تم وضع برامج تعليمية خاصة بتحسين شروط رعاية الأمهات للمواليد[42].

هكذا، تنامت رؤى عالمية، وأساسا في البلدان الغنية، متعلقة بحقوق الأطفال وصحتهم وحمايتهم اقتصاديا. ونظرا لكون حقوق الأطفال كانت فكرة جديدة في كل المجتمعات، فقد دفع ذلك إلى التفكير في اتفاقيات دولية حول هذا الشأن. ومن جهة أخرى، ساهم انخفاض الولادات في تخطي مشكلة البطالة، والتراجع في معدلات وفيات الأطفال، بالإضافة إلى ازدياد نسبة الأطفال الذين يتلقون التعليم[43].

مع حلول أواخر القرن العشرين، "كانت معدلات عمالة الأطفال تهوي في كل مكان تقريبا، مع صعود في التعليم المدرسي، ولم ينف ذلك حقيقة أن أكثرية كبيرة من الأطفال كانت لا تزال تعمل في بعض الأماكن، وتحت ظروف من الاستغلال الواسع"[44].

لقد بذل العاملون في ميدان الحقوق جهدا عظيما للتخفيف من آثار الحرب على الأطفال. وقد نجحوا، بالفعل، في بعض الأحيان، لكنهم بالرغم من ذلك لم يتمكنوا من مواكبة حجم المشاكل العالمية المحدقة بالأطفال، حيث بقي صوتهم غير فعال على المستوى العالمي[45]. وإزاء التحولات العالمية في حقوق الطفل، "وقّع كثير من الدول على وثيقة حق الطفل في التعليم المدرسي، لكن بسبب نقص الموارد واعتماد الأسرة على عمالة الأطفال، فإن كثيرا من الأطفال قد حُرموا من التعليم تماما"[46].

بيد أن قدوم الأفكار الحديثة الخاصة بالطفولة – التي انتشرت في سياق محاكاة الدول لبعضها البعض وبالضغط الدولي معا – عزز سرعة التغيير في أفق بناء دول ذات أنظمة اجتماعية واقتصادية حديثة. وعليه، تراجعت الاختلافات بين الجنسين عند الأطفال في أفق تحقيق المساواة، وإن كان هذا الأمر ما يزال يثير مناظرات عنيفة في بعض المجتمعات. بالرغم من ذلك، جعل تراجع معدل الولادات عددا متناميا من الأسر لا تتوفر إلا على "ابن أو ابنان– أو بنت أو بنتان– وأن التي لها بنات فقط تولي، حتما، قدرا من العناية للفتيات أكبر مما كانت تفعل نظيراتها التقليدية، حتى في أماكن مثل الصين. يستمر التعليم في التحول نحو المساواة: من إيران إلى الولايات المتحدة، 55–60 في المائة من كل الطلاب الجامعيين هم نساء"[47].

خاتمة

إن تاريخ الطفولة قاتم ومأساوي، ليس بسبب إقصاء وتهميش الأطفال عبر التاريخ فقط؛ بل لأن هذا الإقصاء ارتبط بأبشع أشكال التقتيل والتعذيب والاستعباد. ذلك لأن الأطفال غالبا ما اعتُبروا ملكا للآباء، شأنهم في ذلك شأن امتلاكهم للأشياء المادية.

إجمالا، يمكننا تقسيم تاريخ الطفولة إلى مرحلتين أساسيتين:

- المرحلة الأولى: هي التي امتدت من الحضارات القديمة إلى حدود القرن الثامن عشر. وتميزت هذه المرحلة باستصغار الطفل واعتباره تابعا للكبار، وأن عليه واجب الطاعة والخضوع الكلي لهم.

- المرحلة الثانية: هي المرحلة التي انطلقت بالغرب ابتداء من القرن التاسع عشر، وانتشرت في باقي دول العالم خلال القرن العشرين مع قيام الدول الحديثة وظهور المدرسة الحديثة.

لقد مكن ظهور علم النفس من الكشف عن كون الطفولة مرحلة متميزة كليا عن عالم الكبار، وأن الطفل له خصائص نفسية ومعرفية مختلفة، وهو الأمر الذي قاد إلى الوعي بحاجاته النفسية والاجتماعية، والتي ترجمت خلال القرن العشرين بلغة حقوق الطفل، حتى سمي بقرن الطفل. إلا أن استمرار الحروب والفقر في العديد من الدول؛ يجعل الأطفال يفتقرون إلى فرص التمتع بحقوقهم الإنسانية.

الهوامش:

---

[1]- بيترن. ستيرنز، الطفولة في التاريخ العالمي، ترجمة وفيق فائق كريشات، عالم المعرفة، عدد 428، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2015، ص282.

[2]- المرجع نفسه، ص60.

[3]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] - المرجع نفس، ص59.

[5]- المرجع نفسه، ص61.

[6]- المرجع نفسه، ص62.

[7]- المرجع نفسه، ص60.

[8]- المرجع نفسه، ص72.

[9]- المرجع نفسه، ص73.
[10]- المرجع نفسه، ص100.
[11]- المرجع نفسه، ص ص100-101.
[12]- المرجع نفسه، ص55.
[13]- المرجع نفسه، ص66.
[14]- المرجع نفسه، ص69.
[15]- المرجع نفسه، ص67.
[16]- المرجع نفسه، ص67.
[17]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[18]- المرجع نفسه، ص68.
[19]- المرجع نفسه، ص69.
[20]- المرجع نفسه، ص101.
[21]- المرجع نفسه، ص ص102-103.
[22]- المرجع نفسه، ص108.
[23]- المرجع نفسه، ص26.
[24]- المرجع نفسه، ص106.
[25]- المرجع نفسه، ص137.
[26]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[27]- المرجع نفسه، ص216.
[28]- المرجع نفسه، ص212.
[29]- المرجع نفسه، ص180.
[30]- المرجع نفسه، ص185.
[31]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[32]- المرجع نفسه، ص222.
[33]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[34]- المرجع نفسه، ص225.
[35]- المرجع نفسه، ص226.
[36]- المرجع نفسه، ص227.
[37]- المرجع نفسه، ص229.
[38]- المرجع نفسه، ص230.
[39]- المرجع نفسه، ص233.
[40]- المرجع نفسه، ص234.

[41]- المرجع نفسه، ص241.

[42]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[43]- المرجع نفسه، ص ص242-243.

[44]- المرجع نفسه، ص244.

[45]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[46]- المرجع نفسه، ص243.

[47]- المرجع نفسه، ص282.